

نفحات القرآن

[157] الرَّحْمَنُ مِنْ تَفَاوُتٍ) . إِنَّ هَذَا الْعَالَمَ الْوَاسِعَ بِكُلِّ مَا يَتَضَمَّنُهُ مِنْ عَظَمَةٍ
فَهُوَ مُتَنَاسِقٌ وَمُنْسَجَمٌ وَمُتَرَابِطٌ وَمُتَّحِدٌ وَمُنَظَّمٌ ، وَإِنَّ وَجُودَ الْإِخْتِلَافِ فِي اللَّوْنِ وَالشَّكْلِ وَالْوِزْنِ
وَسَائِرِ الْكَيْفِيَّاتِ الظَّاهِرِيَّةِ وَالْبَاطِنِيَّةِ أَوْ الْكَمِّيَّةِ أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ جَدًّا ، وَلَكِنَّ الشَّيْءَ الَّذِي لَا
وُجُودَ لَهُ هُوَ اللَّاتِنَاسِقُ وَاللَّانِظَامُ وَالْإِخْتِلَالُ . وَلِذَا تَقُولُ الْآيَةُ فِي ذِيلِهَا (فَارْجِعِ الْبَصَرَ
هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ) وَالْمُرَادُ مِنْ (فَارْجِعِ الْبَصَرَ) هُوَ النَّظَرَ الدَّقِيقَ وَالْعَمِيقَ ،
وَالْمُخَاطَبُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَإِنْ كَانَ هُوَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) وَلَكِنْ مِنَ الْوَاضِحِ
أَنَّ الْمُرَادَ هُمُ الْبَشَرُ جَمِيعًا ، وَتَضِيفُ الْآيَةُ : (ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ
الْعَيْنُكَ الْبَصَرَ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ) (1) . بِهَذَا يَقُومُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ وَبِتَعَابِيرٍ
مُخْتَلِفَةٍ بِدَعْوَةِ الْبَشَرِ إِلَى النَّظَرِ فِي عَالَمِ الْوُجُودِ وَلَا يَكْتَفِي بِالِدَعْوَةِ بَلْ يَرْغِبُهُمْ وَيَحَرِّكُهُمْ
وَيَحَرِّضُهُمْ عَلَى هَذَا الْعَمَلِ ، كَيْ يَعْلَمُوا أَنََّّهُمْ لَا يَجِدُونَ خِلَا أَوْ نَقْصًا فِيهِ ، وَعِنْدَمَا لَا يَرُونَ
ذَلِكَ فَسَوْفَ يَتَعَرَّضُونَ عَلَى حَقِيقَةِ تَوْحِيدِ الْمَبْدَأِ وَالْوَحْدَانِيَّةِ وَيَرُدُّونَ جُمْلَةً (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)
قَلْبًا وَلِسَانًا . هُنَاكَ نَقْطَةٌ جَدِيرَةٌ بِالِإِهْتِمَامِ وَهِيَ أَنَّ (نَفْيَ الْإِخْتِلَافِ) مِنْ بَيْنِ الْمَوْجُودَاتِ فِي
الْعَالَمِ وَالَّذِي وَرَدَ فِي الْآيَةِ أَعْلَاهُ يَعْنِي حَسَبَ إِعْتِقَادِ الْبَعْضِ : نَفْيَ الْعَيْبِ وَالنَّقْصِ ، وَقَدْ فَسَّرَهُ
بَعْضُ بِمَعْنَى نَفْيِ عَدَمِ الْإِنْسِجَامِ ، وَبَعْضُ بِنَفْيِ الْإِضْطِرَابِ وَالتَّزَعُّزِ ، وَبَعْضُ بِنَفْيِ الْإِعْوَاجِ ، وَبَعْضُ
بِنَفْيِ التَّنَاقُضِ ، فِي حِينَ أَنَّ الْآيَةَ لَهَا مَفْهُومٌ وَاسِعٌ يَشْمَلُ كُلَّ هَذِهِ الْمَعَانِي (هَذِهِ الْمَفْرَدَةُ
مُشْتَقَّةٌ مِنْ (فوت) لِأَنَّ الْمُتَفَاوُتَيْنِ يَفْقَدُ كُلُّهُمَا الصِّفَاتِ الْمُخْتَصَّةَ بِالْآخِرِ) .

1 - (ارْجِعِ الْبَصَرَ) كُنَايَةٌ عَنِ النَّظَرِ الْمُتَكَرِّرِ وَالْمَقْرُونِ
بِالدَّقَّةِ وَالِإِهْتِمَامِ ، وَ (خَاسِئٌ) مِنْ (خَسَاءٌ) وَيَعْنِي الْانْقِبَاضَ وَالْإِنْغْلَاقَ الْمَقْرُونِ بِالذَّلَّةِ
وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ هُنَا كُنَايَةٌ عَنِ الْحَرَمَانِ وَالْفِشْلِ ، وَ (حَسِيرٌ) فِي (حَسْرٍ) وَيَعْنِي الضَّعْفَ
وَإِفْتِقَادَ الْقُدْرَةِ وَتَعْنِي فِي الْأَصْلِ : الْإِحْتِفَاءَ ، وَبِمَا أَنَّ الشَّيْءَ إِذَا ضَعُفَ فَإِنَّهُ يَتَجَرَّدُ عَنْ
قُدْرَتِهِ وَطَاقَتِهِ اسْتَعْمَلَ هَذَا اللَّفْظَ بِمَعْنَى الضَّعْفِ .